قيام الحكم الأيوبي في اليمن

من سنة ٥٦٩ هـ – ٥٧١ – ١١٧٤ – ١١٧٦ م

الدكتور محمود ياسين التكريتي

تمهيد :

تمكنت الدولة الايوبية من توسيع حكمها في مصر وذلك منذ سنة ٥٦٩ هـ – ١١٧٤ م ومن المعروف انها بدأت منذ وفاة نور الدين آل زنكي ، فهي وريثة حكمه في كل من مصر وبلاد الشام والجزيرة ، ومدينة للموالاة الى الخليفة العباسي في بغداد ، ولم يمض ربع قرن من الزمن تقريباً على قيامها حتى اصبحت مترامية الاطراف من برقة بافريقية غرباً الى الموصل وبلاد الجزيرة شرقاً ومن سواحل الشام ومصر شمالاً حتى مكة واليمن جنوباً وفي الوقت نفسه كان الوطن العربي بأمس الحاجة الى قوة سياسية توحد بين انظمته المتباينة ، والمتعددة ، وبالنظر الى الأخطار الخارجية التي تحيط بالعرب والمسلمين وبخاصة خطر القوى الصليبية لهذا فان قيام هذه الدولة كان تلبية لواقع المرحلة التاريخية التي يمر فيها الوطن العربي خاصة والعالم الإسلامي عامة . وذلك لتمتع اغلب قادتها بالنزعة الوحدوية الى جانب قيادتهم حركة تحرير الارض من المحتلين ومما يعكس هذا تمتع بعضهم بفهم وادراك لروح العصر ومبادئه السائدة وخاصة الملك صلاح الدين يوسف مؤسس دولتهم .

فاذا كان هذا دور بني ايوب على الصعيد السياسي فان دورهم في البناء الحضاري واضح ، لمساهمتهم في التطور الذي حصل في الحضارة العربية اذ اتضح ذلك تاريخياً خلال حكمهم .

لقد اقترن عاما ٥٦٨ هـ ــ ١١٧٣ م ، ٥٦٩ هـ ــ ١١٧٤ م من حكم الايوبيين بتوجيه حملتين عسكريتين ، الاولى قصدت المغرب العربي بقيادة قراقوش مملوك تقيّ الدين عمر ابن أخي صلاح الدين [١] تهدف كما ذكر « لتحقيق ما يشاع عن ثروة بلاد المغرب » وكما يقال ان تقي الدين عمر كان يبحث عن جهــة يستقر بها ، [٢] ومهما تعددت دوافع الحملة فان دافعها الاهم هو تحقيق هدف ستراتيجي واقتصادي معا تمثل في تأمين الحدود الغربية لمصر من غارات القبائل العربية التي تعيش في الصحراء الغربية يبرز دور صلاح الدين وبعد نظره في فن الحرب حين أدرك ان الصحارى هي دروع مصر الطبيعية كما وسعت من قاعدة حكمه في مصر بانضمام الاراضي السابقة واخيراً فانها حققت اسمى هدف هو الوحدة كما وفرت للدولة الجديدة « الايوبية » عمقاً استراتيجياً باتجاه المغرب العربي واستطاع قائد الحملة قراقوش ملك الكثير من البلاد في افريقية ما خلا المهدية [٣] وسفاقس [٤] وقفصة [٥] وتونس وما ولاها من القرى والمواضع [٦] وضمن الستراتيجية التي خطط لها صلاح الدين في توفير حماية كبرى لحدود دولته في مصر فقد توجهت الحملة العسكرية الثانية في شهر رجب من سنة ٥٦٩ هـ ــ ١١٧٤ م الى اليمن بعد ان وقع اختيار صلاح الدين عليها [٧] .

(١) عزالدين ابوالحسن علي بن ابي الكرم بن الأثير : الكامل في التاريخ : ١١ : ٣٨٩ شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل القدسي المعروف بابي شامة : : الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلا حية : الجزء الاول ، القسم الثاني ٥٤٧ ، ٥٤٨ .

(٢) نظير حسن سعداوي : التاريخ الحربي في عهد صلاح الدين الايوبي ٤١ .

(٣) المهدية : موضعان احدهما بافريقية والاخر اختطه عبدالمؤمن بن علي قرب سهلا ويراد بها هنـا (مهدية تونس التي اختطها المهدي سنة ٣٠٠ هـ) راجع ياقوت : معجم البلدان ٢٩٩/٤ .

(٤) سفاقس : مدينة من نواحي افريقية جل غلاتها الزيتون وهي على الساحل : ياقوت : معجم البلدان ٢٢٢/٣ (ط دار صادر) .

(٥) قفصة : بلد صغيرة في اطراف افريقية من ناحيةالمغرب من عمل الزاب الكبير بينهما وبين القيروان ثلاثة ايام : ياقوت معجم البلدان ٣٨٢/٤ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ١١ ، ٣٨٩ ، ابو شامة : الروضتين جـ ١ ق٢ ٥٤٨ .

(٧) علي بيومي : قيام الدولة الايوبية في مصر ١٨٧ .

أ ـ دوافع الحملة :

الدوافع السياسية والاقتصادية :

اختلفت آراء المؤرخين في تحديد الاسباب التي دفعت صلاح الدين الى فتح اليمن فقد ذكر ابن ابي طيء ان السبب في خروج شمس الدولة الى اليمن يعود الى « انه كان كريما جواداً وكان اقطاعه لا يقوم ولا ينهض بمروءته » (٨) واتفق ان انتظم في ملكه وخدمته وهو بمصر الشاعر نجم الدين أبو محمد عمارة بن الحسن اليمني (٩) واختص بمدحه فاذا ماخلا به كان يصف له بلاد اليمن وكثرة اموالها وخيرها وضعف حكامها فمدحه مرة بقصيدة يحرضه فيها على ملك اليمن ومما جاء فيها :

العلم مذ كان محتاج الى العلم وشفرة السيف تستغني عن القلم (١٠)

كما نراه في الوقت نفسه يقدم لنا سبباً آخر فيقول « كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم اطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبدالنبي كان قد اعتدى على هذا الشريف هاشم فأعلم شمس الدولة اصحابه بعزمه على اليمن فأجابوه فتجهز (١١).

ان ماقدمه بن ابي طيء لايكفي ان يكون سبباً أساسياً لتوجيه الحملة الى اليمن فحاجة شمس الدولة ابن ايوب الى الاموال وذلك بحجة ان اقطاعه في مصر لايكفي لسد حاجته تلك هي التي دفعته بأن يقود عسكره ويتوجه الى اليمن ، وكل مايمكن ان نسأله بهذا الصدد اليس من السهل عليه ان يطلب

(٨) ابو شامة : الروضتين ج ١ ق٢ ٥٥٢ (نقلا عن ابي طيء) .

(٩) انظر عماد الدين ، الاصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر : قسم شعراء الشام ٣ : ١٠١ ابن الأثير : الكامل ج ١١ ٤٠٠ – ٤٠١ ، سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ق٢ ج ٨ ٣٠٢ .

(١٠) انظر عمارة اليمني : النكت العصرية في اخبار الوزارة المصرية : ٣٥٢– ٣٥٣ ، ابو شامة : الروضتين : ق٢ ج ١ ٣٥٢ – ٣٥٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب١ : ٢٣٨ ، الحنبلي : شفاء القلوب ٥٠ – ٥١ .

(١١) ابو شامة : الروضتين ق ٢ ج ١ : ٥٥٤ (نقلا عن ابن ابي طيء) (ان حاجة شمس الدين للاموال قد تكون احدى العوامل التي دفعته الى حكم اليمن ولكن لا تكون هي العامل المهم .)

من أخيه زيادة اقطاعه ؟ ويطلب منه الاموال ليستعين بها على وجوه صرفه وخاصته اذا علمنا ان صلاح الدين كان لايضيق على اسرته في أمور كهذه[١٢] فضلا عن أن الحملة لم تكن من فكرة تورانشاه بن ايوب وحده بل هي جزء من الاستراتيجية للدولة الايوبية بدليل ان صلاح الدين تعود ان يدعو رجال اسرته وكبار امرائها الى مناقشة مثل هذه الامور قبل البدء في تنفيذها[١٣]

فليس من السهولة ايضاً ان يستسلم الى رأى بمجرد ان عرضه عليه شاعره عمارة اليمني يقضي بفتح اليمن وربما كان على علم مسبق بما كان عمارة يفكر به وكما هو معروف ان عمارة كان من انصار الفاطميين ودولتهم وكما قيل « انه كان تواقاً الى ابعاد شمس الدولة عن مصر لكي تضعف قوة الايوبيين فيها وعندها تتاح الفرصة امام بقايا الفاطميين بمصر في التحرك للتعبير عن رغباتهم باعادة دولتهم وبعثها من جديد[١٤] بما فيه أحياء الخلافة الفاطمية ويكشف عن مثل هذا الامر ما أقدم عليه جماعة من الفاطميين للتآمر على صلاح الدين في القاهرة سنة ٥٦٩ هـ آذار — نيسان ١١٧٤م ومن بينهم عمارة ابن أبي الحسن اليمني الشاعر بعد اتفاقهم مع اموري ملك بيت المقدس وسنان رئيس الحشيشية ووليم الثاني ملك صقلية على غزو مصر من ناحيتهم في حين يكون دورهم القيام بثورة داخلية في القاهرة حين غياب صلاح الدين

(١٢) انظر علي بيومي : قيام الدولة الايوبية ١٨٨ .

(١٣) للتعرف على مثل الاجتماعات التي كان يعقدها صلاح الدين مع اهله وامرائه واستشارتهم وأخذ رأيهم في الأحداث السياسية فمثلا نراه يجتمع بهم ويستشيرهم حول ما عزم عليه نور الدين محمود على قصده واخذ مصر منه سنة ٥٦٧ هـ من اجل الاستزادة ، راجع ابن الأثير : الكامل ٣٧٢/١١ — ٣٧٣ ، ابو شامة : الروضتين ق٣ ج٥١٩/١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ٢٢١/١ — ٢٢٣ .

(١٤) راجع الدور التآمري لعمارة اليمني والفواطم، من المصريين ضد صلاح الدين بالتفصيل ابن الأثير الكامل ٤٩٨/١١ — ٤٠١ ، ابوشامة : الروضتين ٢ ج ١ ٥٦٤ — ٥٦٧ سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ق ١ ج ٣٠٤/٨ و : Lane pool saladin, P. 124 - 126

عنها [١٥] إلا ان المؤامرة كشفت بعد ان عرف صلاح الدين اقطابها وتحقق منهم فاعترفوا له فأمر بصلبهم مما سهل له أمر مواجهة المتآمرين الآخرين .

تتفق بعض المصادر على سبب آخر لفتح اليمن فتذكر انها كانت باشارة من الخليفة العباسي وعلى اثر استغاثة امراء اليمن به من اعتداءات عبدالنبي بن مهدي لسوء سياسته وتصرفه فكتبوا رسالة الى الخليفة ببغداد شكوا فيها اليه امره فلما وصلته طلب بدوره الى السلطان نور الدين محمود [١٦] ان يرسل احدا من قبله للتحقيق في الشكوى التي رفعها اهل اليمن مما دفع نور الدين الى الكتابة الى صلاح الدين ليجرد عسكرا الى قتال عبدالنبي بن مهدي [١٧] وتلبية لهذا الامر وجه صلاح الدين حملته العسكرية الى اليمن ليملكها ويقطع دابر الفتن فيها [١٨] وهنا لا بد من الاشارة الى سبب آخر لسير الحملة الى اليمن هو خوف صلاح الدين من اخيه تورانشاه لكونه

(١٥) سعداوي : التاريخ الحربي : ٤٢ .

(١٦) ذكر ابن الأثير ان صلاح الدين هو الذي استأذن نور الدين في ان يسير بعسكره الى اليمن ليفتحها فأذن له بذلك ، ويكشف لنا هذا ان اهل اليمن راسلوا صلاح الدين وليس الخليفة العباسي ببغداد ، ومع هذا فاننا لا نعثر على نصوص تاريخية اخرى تشير الى ما كان يستهدفه الخليفة العباسي من وراء طلبه بتجهيز الحملة ولكن يمكن القول انه اراد تعزيز نفوذ الدولة العباسية في اليمن لانها كانت في خلاف سياسي وفكري مع نفوذ الدولة الفاطمية – يراجع ابن الأثير : الكامل ٣٩٦/١١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ٢٣٨/١ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى : ٣٨٦/٤ ، الغساني : العسجد المسبوك ١٨١/١ .

(١٧) انظر بهذا الصدد ، أبو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله بن أحمد ابي مخرمة تاريخ ثغر عدن ١٢٧/١ – ١٢٨ ط ليدن / ذكر هذا التعليل ابو مخرمة نقله عنه المؤرخون الاخرون راجع : ابن خلكان : وفيات الاعيان : ١ : ٧٧٣ ، ابو الضياء عبدالرحمن بن علي الديبع الشيباني الزبيدي : قرة العيون : ٣٧٤/١ ، بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيد : ورقة / ٢٩ (مخطوطة) ، يحيى بن الحسين بن القاسم : غاية الاماني في اخبار القطر اليماني ق٣٢٢/١ .

(١٨) ابو الفداء : المختصر : ٦٤/٣ .

اكبر منه واحق بالملك منه ولهذا اقـدم على ابعاده الى اليمن تخلصا منه [١٩] .

واخيرا يبقى سبب سياسي آخر ربما يكون هو الذي دفع صلاح الدين الى القيام بالحملة وهو خوف صلاح الدين وأهله من نور الدين محمود حينما عزم السير الى مصر واخذها منهم فاستقر الرأي ان يملكوا بلاد النوبة او اليمن فاذا ما وصل اليهم لقوه وصدوه [٢٠] .

ان ما سبق قد يكون سببا مقبولا الى حد ما ولكن بعد صلاح الدين الجغرافي من نور الدين لا يمنع انتقام الأخير منه فيما اذا اراد ذلك لان نور الدين يملك من القوة السياسية والعسكرية ما يكفي لردعه الا انه اكتفى بما قدمه صلاح الدين من عذر منطقي تبدد على اثره خوفه وخوف اسرته من نور الدين بعد وقوع الجفوة بين الاثنين [٢١] . ولدينا سؤال هنا يجب طرحه لماذا جدد صلاح الدين حملته الى اليمن سنة ٥٧٧ هـ — ١١٨١ م بقيادة اخيه سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين [٢٢] بعد زوال خوفه من نور الدين : وان كل ما ذكر بانهـا جهزت بسبب الخلاف الذي وقع بين نوابه في اليمن ومع ذلك قد لا يكون هذا وحده المبرر المقبول كما لا يصح ان ترتبط هذه الحملة بالسبب نفسه لحملته عام ٥٦٩ هـ — ١١٧٤ م ومع هذا فان المعروف عن نور الدين انه توفي سنة ٥٦٩ هـ ، أي

(١٩) ذكر ابن تغري بردى لنا هذا التعليل استنادا على ما ذكره مؤرخون آخرون كسبط ابن الجوزي ولهذا فان هذا التعليل لا يمثل كل الحقيقة للدافع الرئيسي للحملة ، انطلاقاً من كون أن الدولة الايوبية لم يستقر نظامها السياسي وادارتها بعد وكما لا يزال هناك نور الدين محمود سلطان مصر والشام ولم يكن لصلاح الدين اليد المطلقة للتصرف بملك مصر او غيرها بالاضافة إلى ان صلاح الدين كان يحترم اخاه فيقدمه على نفسه وان حكم تورانشاه في بلاد اخيه صلاح الدين وامواله نافذ ، وعلى الرغم مما اشيع عنه انه (تورانشاه) كان احق منه بالملك : انظر ذلك في ابن الأثير الكامل : ١١ : ٤٦ ابن خلكان : وفيات ١ : ٢٧٣ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان : ق ١ جـ ٨ /٣٦٢ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة : ٦ : ٨٧ الحنبلي شفاء القلوب : ٥٠ .

(٢٠) ابن الأثير : الكامل : ٣٨٦/١١ — ٣٨٧ ، ابو شامة : الروضتين : ق٢ جـ١/٧١٦-٢١٧. ابن شداد : سيرة صلاح الدين /٢٢ ، المقريزي : السلوك : ق١ جـ١/٥٢ .

(٢١) وقعت تلك الوحشة بين الطرفين سنة ٥٦٧ هـ .

(٢٢) سنتعرف على سير تلك الحملة وهدفها .

قبل الحملة الثانية بسنوات ولم يكن لدى صلاح الدين ما يخفيه حتى يعسكر في اليمن لتكون موطناً له ولاهله في المستقبل فضلا عن حاجته الى كل جندي لمنازلة الصليبيين في هذه الفترة [٢٣] . . . وهكذا فان معرفة الاسباب لحملة صلاح الدين الى اليمن بقيت غامضة عند المؤرخين ، المعاصرين من المسلمين.

يتضح لنا مما سبق ان صلاح الدين اراد تحقيق غرض استراتيجي وهو تأمين حدود مصر الجنوبية حيث تعد اليمن مكملة جغرافيا لمصر في ذلك الوقت وخاصة ارتباطها مع اليمن من جهة البحر الاحمر ومن « الواضح ان صلاح الدين حاول بعد ان استقر في مصر ان يفتح ملحقاتها ويؤمن حدودها ويؤيد ذلك حملاته الحربية على الشوبك والكرك واياة وبرقة والنوبة » [٢٤] وعليه فان هدف الحملة كان لتأمين حدود مصر الجنوبية من الناحيتين الحربية والتجارية مفتاح البحر الاحمر الذي تطل عليه الحبشة المسيحية ويحتمل ان صلاح الدين توجس خيفة من تسرب الفكرة الصليبية في هذا البحر جنوباً الى الاحباش فيصير محاطاً بنارين احداهما على سواحل البحر المتوسط والاخرى على سواحل البحر الاحمر [٢٥] وحدث ما توقعه صلاح الدين فعلاً عندما قام الامير ارناط صاحب الكرك سنة ٥٧٧ هـ — ١١٨١ م بحملته المشهورة قاصدا تيماء ومنها الى مدينة النبي (ص) [٢٦] وذلك للاستيلاء على تلك النواحي وعلى الرغم من عدم ثبوت مثل ذلك الاتصال او التحالف بين الصليبيين والاحباش [٢٧] ولكن لو تم انتصار ارناط على العرب

---

(٢٣) سعداوي : التاريخ الحربي /٤٢ — ٤٣ .

(٢٤) علي بيومي : قيام الدولة الايوبية : ١٨٩

(٢٥) سعداوي : التاريخ الحربي ٤٣ .

(٢٦) ابن الأثير : — الكامل : ٤٧٠/١١ ، ابو شامة : الروضتين ق٢ ج٢٣٦/١ وابن واصل : مفرج : الكروب ١٠٢/٢ .

(٢٧) انما يؤيد وجود اتصال سابق بين الحبشة والصليبيين وعلاقة ذلك بحملات صلاح الدين الى بلاد النوبة واليمن من جهة وخوف صلاح الدين من الحبشة من جهة اخرى ما يكشف لنا سعداوي بقوله « منها طلب الملك الصالح طلائع بن رزيق من اسامة بن منقذ قيادة حملة عسكرية ضد الحبشة لانه سبق وان زار مصر اواخر الدولة الفاطمية فعاد الى بلدته شيزر بالشام فراسله ابن =

لحدث مثل هذا ولكانت النتائج على مصر والوطن العربي وخيمة ، الا ان انتصار صلاح الدين انهى كل احتمال وتوقع . . وعليه فإن حماية اراضي مصر هي التي شغلت فكر صلاح الدين ودفعته لانشاء دولة ايوبية مستقبلا تتطلب منه توسيع وزيادة الرقعة الجغرافية التي تشغلها دولته لتكون في مأمن وحماية كاملة من الأعداء وبخاصة من الشمال حيث غارات الفرنجة والصليبيين ومن الجنوب حيث سيطرة الاحباش وبقايا الدولة الفاطمية والخوارج .

الدوافع الاقتصادية : —

لا يمكن اغفال اهمية اليمن الاقتصادية سواء بما يتعلق بأموالها وكثرة خيراتها او أهميتها التجارية وقد لفت ذلك نظر الايوبين فكان لاشارة عمارة اليمنى الوضوح في اهمية اموالها حينما وصف اليمن للملك تورانشاه بن ايوب عندما اشار عليه بفتح اليمن (٢٨) .

ومما يؤكد تلك الاهمية قول تورانشاه الى افراد عسكره عندما ملك مدينة عدن وارادوا نهب البلد « ما جئنا لنخرب البلاد وانما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع من داخلها » (٢٩) وهذا يكشف لنا حاجتهم الى الاموال ومدى امكانية الاستفادة منها في حروبهم وتمشية امور دولتهم الجديدة .

أما من الناحية التجارية فيمكن ان نشير الى مدينة عدن حيث اشتهرت في كونها مرفأ على البحر ولها مرسى عظيم وهي فرضة للهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس (٣٠) وفي ضوء ما احتلته اليمن من اهمية بحرية وتجارية

= رزيق يعرض عليه الاقطاع بمصر ويخاطبه بقيادة الحملة فمنعه نور الدين محمود سلطان الشام ومما يشير الى استمرار الخوف من الحبشة في ذهن صلاح الدين » راجع سعداوي : التاريخ الحربي : ٤٣ — ٤٤ بالاعتماد على اسامة بن منقذ : الاعتبار : ٢٥ : المقريزي : السلوك ج ١ ق١/ص ٤٨ .

(٢٨) راجع ابوشامة : الروضتين / ق٢ ج١/٥٥٢ إبن واصل : مفرج الكروب : ١/٢٣٨-٤٠

(٢٩) ابن الأثير : الكامل ١١/٣٩٧

(٣٠) نفس المصدر السابق

اهتم الايوبيون في تنظيم تجارتها ومنذ ان فرضوا سيطرتهم على البحر الاحمر وقد دفعهم الى ذلك التنظيم رغبتهم في استقرار التجار الكارمية (٣١) ونموهم في تلك المناطق الاسلامية (٣٢) كما استهدفوا من وراء ذلك تحقيق هدف سياسي هو ابعاد سيطرة الافرنج على النشاط التجاري والبحري في البحر الاحمر اذا اعتبروا طريق البحر الاحمر ومصر ايسر الطرق وارخصها لجلب التوابل وسلع الشرق النافعة في الاسواق الاوربية (٣٣) .

لقد وقع مثل ذلك الصراع بين العرب والافرنج من اجل السيطرة على البحر الاحمر وتجارة اليمن وتكشفها لنا مكاتبة صلاح الدين الى اخيه العادل سنة ٥٨٧ ﻫ اذ يخبره فيها انتصار عساكره ضد الطامعين من الافرنج (٣٤) كما بعث رسالة اخرى الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله المستضيء ابو العباس بن احمد في بغداد يخبره فيها عن الاغراض التي استهدفها الافرنج وهي الاستيلاء على قلعة ايلة الواقعة على البحر الاحمر والوصول الى سواحله والسيطرة عليه لان بلادهم مجاورة له فضلا عن رغبتهم في قطع الطريق امام الحجاج المسلمين ومنعهم للوصول الى مكة المكرمة (٣٥) واخيرا استهدفوا (تجارة اليمن) . واكارم عدن ويلم بسواحل الحجاز (٣٦) ويمضي حتى يخبره بانتصار البحرية العربية عليهم بحرا وخيول

(٣١) الكارمية (Kuararima) وهي لفظة امهرية تفيد معنى الحبهان وتعرف بالعراق اليوم بالهيل وهو تابل من التوابل التي اشتغلوا بالاتجار فيها ثم صحفت هذه الكلمة واصبحت كارم واطلقت على التجار ومن اجل الاطلاع راجع: صبحي لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى (مقالة منشورة في المجلة التاريخية المصرية) : ص ٦ مجلد ٤ عدد ٢ لسنة ١٩٥٢ م القاهرة .

(٣٢) راجع المرجع السابق ص ٧

(٣٣) راجع عن محاولة الافرنج في السيطرة على البحر الأحمر ، ابو شامة ، الروضتين ج ٢ ص ٥٣ – ٣٧ .

(٣٤) انظر الرسالة في : ابي شامة : الروضتين ج ٢/٣٦ طبعة دار الجيل بيروت

(٣٥) راجع المصدر السابق : ج ٢/٣٧ وكذلك راجع عن هذه الاحداث المقريزي الساوك ق ١ ج ١/٧٨/٩

(٣٦) ابو شامة : الروضتين ، ج ٢/٢٧ .

العرب برا ويعد للخليفة الغنائم التي حصل عليها العرب في حروبهم على الافرنج .

ان ما سبق يكمل الصورة ويوضح الحقيقة لدوافع الحملة الايوبية الى اليمن وعليه تكون الدوافع الاقتصادية لفتح اليمن لا تقل اهمية عن الدوافع السياسية بل نستطيع القول انها تداخلت مع تلك العوامل لترسم معا صورة الواقع الحقيقي للحملة في بعض جوانبها وهيأت الفرصة لقيام الحكم الايوبي في اليمن واستمراره ونستطيع ان نتلمس ذلك من خلال استقرائنا للنصوص التاريخية السابقة .

ب ـ سير الحملة :

ومهما كانت الاسباب التي دفعت صلاح الدين الى فتح اليمن فالمهم انه اخضعها الى حكمه ووقع اختياره لقيادة الحملة على اخيه الاكبر تورانشاه بن ايوب ، وكانت الخطوة التالية لانجاح الحملة ان اطلق غلة قوص لمدة سنة وكانت اقطاعه وقدر ارتفاعها مئة الف دينار لسنة ٥٦٩ هـ ـ ١١٧٤ م وزوده فوق ما كان في نفسه(٣٧) وذلك من أجل توفير الأموال اللازمة للحملة ومن اجل انجاح مهمتها . وخرج بصحبته جماعة من الامراء(٣٨) يقدرون بألف فارس (٣٩) فضلا عمن سيره من فرسانه وسلكت عساكره البر والبحر في مستهل رجب من سنة ٥٦٩ هـ فوصل هو وقواته الى مكة المكرمة فزار الكعبة بصحبة اميرها بعد ان خلع عليه وعلى اصحابه وطيب قلوبهم ، أقر اميرها في منصبه (٤٠) ثم اتجه الى اليمن برا فوصلها حتى دخل اراضيها بدون مقاومة تذكر (٤١) وقد استقبله الشريف هاشم بن غانم السلماني

(٣٧) ابو شامة : الروضتين : ق٢ ج١/٥٥٤ ، الحنبلي : شفاء القلوب : ٥٠ – ٥١ .

(٣٨) كان من بين الأمراء الذين رافقوا الحملة امراء بني رسول وهم خمسة رجال كان لهم الجلالة والوجاهة في الديار المصرية واليهم تنسب الدولة الرسولية ؛ راجع علي بن الحسن الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ١/٢٨ – ٢٩ .

(٣٩) قدر عدد الفرسان يحيى بن الحسين ، بثلاثة الاف فارس . انظر يحيى ابن الحسين غاية ١/٢٢١

(٤٠) ابن الأثير : الكامل : ١١/٣٩٦ – ٣٩٧ ، ابو شامة : الروضتين ٢ ج ١/٥٥٤ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان / ١ /٢٧٣ .

(٤١) سعداوي : التاريخ الحربي المصري : ٤٤ ، بيومي قيام الدولة الايوبية : ١٨٩ .

وجميع الأشراف من بني سليمان ، وجموع كثيرة من أهل اليمن (٤٢) وبعد الاستقبال بدأت عملية تصفية الحساب مع امراء اليمن ممن أبدوا مقاومة لجيش الأيوبيين ومعارضة لحكمهم الجديد .

اتبع تورانشاه في حرب اليمن خطة عسكرية عرفت بمواجهة اعدائه متفرقين الى جانب استعماله المباغتة العسكرية ، وكان اول همه توجيه الضربة الى زبيد حيث يتحصن في داخلها اميرها عبدالنبي بن مهدي متولياً قيادة سكانها للحرب مما اضطر معه شمس الدولة الى فرض الحصار حول سورها (٤٣) فاذا ما قاتلهم لم يثبت امامه وفتح البلد عنوة فملكه والقى القبض على عبدالنبي بن مهدي وزوجته المدعوة بالحرة فأخذه اسيرا وسلمه الى احد امرائه المسمى سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ من امراء شيزر في الشام (٤٤) كما تم الاستيلاء على امواله (٤٥) .

ان سقوط زبيد يمثل الخطوة الاولى للحكم الايوبي في اليمن كما عبر عنه سقوط مملكةابن مهدي (٤٦) وزوال نفوذ المهديين (الاسرة المهدية) (٤٧) اذ من

(٤٢) ابو شامة : الروضتين : ق٢ ج١/٥٥٤ .

(٤٣) ابن الأثير : الكامل . ١١/٣٩٦ ، ابو شامة : الروضتين ق٢ج١/٥٥٤ .

(٤٤) ابن الاثير . الكامل : ١١/٣٩٧ ، ابو شامة : الروضتين : ج١ ق٢/٥٥٤ الذهبي / تاريخ الاسلام : / م٤ ورقة (٤٥٤) نسخة دار الكتب المصرية رقم (٣٩٦) .

(٤٥) راجع سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان / ج٨ ق١/٣٠ ، ابن خلدون : التاريخ ٣٠/٣٨٧ ، القلقشندي : مآثر الانافة : ٢/٥٤ .

(٤٦) انظر ابن الديبع الشيباني : الزبيدي : قرة العيون : ق١/٣٧٣ ، بغية المستفيد/ ورقة ٢٩ (مخطوط) حسين بن احمد العرشي : بلوغ المرام في شرح مسك الختام ٤١(نشره الاب انستاس الكرملي) - القاهرة ١٩٣٦ م — حسن سليمان : تاريخ اليمن السياسي : ٢٥٢ .

(٤٧) المهديون (الاسرة المهدية) حكمت الاسرة المهدية من سنة ٥٥٤ هـ-٥٦٩ هـ/١١٥٩ م-١١٧٣ في زبيد ، وحكم من هذه الاسرة ثلاثة امراء فقط وهم علي بن مهدي ، ومهدي بن علي ، وعبدالنبي بن مهدي الذي كان ثالث حكام الاسرة بل الأخير . انظر : Lane Poole. Mohammadun danasties : P, 95 وقد نقلها منه جمال الدين الشيال محقق الروضتين ، راجع ابو شامة الروضتين /ج١ ق٢/٥٥١ (هامش ٦) ، ابن واصل مفرج الكروب ١/٣٨ (هامش ١) .

المعلوم ان عبدالنبي ملكهم مات في الاسر وما ان استقرت الأحوال السياسية في مدينة زبيد وتأكد شمس الدولة من اذعان اهلها للحكم الجديد حتى باشر في اقامة الخطبة العباسية وتنظيم الادارة فيها (٤٨) ، ومما لاشك فيه ان الحملة حققت هدفاً مباشراً للعباسيين اذا اعادت اليمن الى تبعيتها السياسية .

كانت الخطوة الثانية من حكم تورانشاه في اليمن هي توجيه الحملة العسكرية الى عدن حيث تولى الحكم فيها بقية لملك آل زريع وكان حاكمها ياسر بن بلال بن جرير المحمدى ، ورث ملكها من ابيه بلال بن جرير ، وهو نائب آل زريع . بعدن(٤٩) ولما وصل عسكر الايوبيين الى عدن (٥٠) لم يستطع دخولها في بادئ الأمر ، وذلك لما تمتاز به من موقع حصين فهي من جهة البر من امنع البلاد واحصنها(٥١) في حين يحيط بهذا البحر من الجهات الثلاث الاخرى . وما ان سمع صاحبها بقدوم شمس الدولة حتى اسرع هو الآخر الى لقائه فاذا دارت المعركة بينهما هزم عسكر عدن ففسح المجال امام الجيش الايوبي بالانسياح الى داخل المدينة والاستيلاء عليها وبهذا سقطت ثاني مدن اليمن بل ثاني امارة فيها هي امارة عدن وانهار معها حكم آل زريع (٥٢) .

لقد اخطأ حاكمها ياسر بن بلال بن جرير في تقدير الموقف العسكري مع جيش بني ايوب ، فهو لم يحسن التصرف عن طريق الاستفادة من حصانة

---

(٤٨) ابن الأثير ٣٩٧/١١ ، ابو شامة ، الروضتين : جـ ١ ق٥٥٤/٢ ، الزبيدي ، بغية المستفيد : ورقة ٢٤ .

(٤٩) ابن خلدون . التاريخ . ٢٨٧/٣ ، ابن الديبع ، بغية المستفيد: ورقة ٢٩ ، وكل ما ذكر عن ياسر بانه كان مولى الداعي محمد ابن ابي السعود بن زريع وهو آخر من تولى من الدعاة أبو مخرمة جـ ١ : ٤٦ ، جمال الدين ابي الفتح يوسف بن يعقوب ابن المجاور ، صفة بلاد اليمن ، والمعروف بتاريخ المستبصر : ١٢٧ .

(٥٠) ابو شامة : الروضتين / جـ١ ق٥٥٤/٢ .

(٥١) ابن الاثير : الكامل /٣٩٧/١١ .

(٥٢) ابن الأثير : الكامل /٣٩٧/١١ ، ابن خلدون : التاريخ /٣٨٧/٣ .

ومنعة المدينة (فلو تحصن في داخلها واقام بها ولم يخرج عنها) [٥٣] لتغير الموقف العسكري ، وانقلاب النصر الى هزيمة ، وتقهقر العسكر الايوبي خائيا ، فكانت نتيجة اللقاء ان ملك بنو ايوب عدنا ووقع ملكها ياسر بن بلال اسيرا بايديهم ، ومعه انتهى حكم آل زريع [٥٤] وسقوط امارتهم .

وسلك تورانشاه سياسة طيبة مع سكان عدن فعندما اراد الجند نهب المدينة منعهم وقال «ما جئنا لنخرب البلاد وانما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع من دخلها» [٥٥] وعندمـــا دخلت عدن تحت السيطرة الايوبية رحــل شمس الدولة عنها باتجاه زبيد اذ اتخذ قرارا يتضمن اخضاع ما بقي فيها من القلاع والحصون التي لا تزال تعود ملكيتها الى عبدالنبي بن مهدي كقلعة تعز [٥٦] وقلعة التعكر [٥٧] والجند [٥٨] وغيرها [٥٩] وقيل انه فتح ثمانين حصنا ومدينة وقيل انه لما قتله سير نواب القلاع مفاتيحها اليه وهي احدى واربعون حصنا [٦٠] .

لم يغب عن ذهن شمس الدولة تورانشاه بن ايوب الاستيلاء على صنعاء فتوجه اليها بعد ان فرغ من قلاع وحصون زبيد فوصلها في المحرم من سنة ٥٧٠ هـ ــ ١١٧٤ م

(٥٣) ابن الأثير : الكامل /١١/٣٩٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب /١/٢٤٢ .

(٥٤) آل زريع : وهم آل زريع بن العباس بن المكرم ولاة عدن نسبتهم من همدان ثم من جشم بن اصبها ، راجع ، ابو مخرمة /١/٤٠ .

(٥٥) راجع – ابن الأثير : الكامل/١١/٣٩٧ – ٣٩٨ ، ابن واصل . مفرج الكروب ١/٢٤٣ اما الدافع في منع تورانشاه بن ايوب الجند من نهب عدن فانه اراد ان يحقق هدفين هما كسب ود الرعية وتأييدهم لحكمه الجديد ، الى جانب الاستفادة من دخلها واموالها ليعزز موقف ذلك الحكم .

(٥٦) تعز : قلعة عظيمة من قلاع اليمن المشهورات : ياقوت : معجم البلدان : ٣/٣٤ .

(٥٧) التعكر : قلعة حصينة باليمن من مخلاف جعفر مطلة على ذي جيلة : ياقوت : معجم البلدان ٢/٣٤ .

(٥٨) الجند : جبل باليمن هكذا ذكره ياقوت : معجم البلدان ٢/١٧٠ .

(٥٩) ابن الأثير : الكامل /١١/٣٩٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب /١/٢٤٣ : (مر بنا ذلك سابقاً) .

(٦٠) الزبيدي : بغية المستفيد ، ورقة / ٢٢٩ الحنبلي : شفاء القلوب / ٥٢ .

وضمنها الى ملكه وبهذا استطاع ان يصفي الحساب مع المعارضة .

ان اشهر ما عرف به حكمه بانه ملك اكثر بلاد (٦١) فاحسن السياسة مع اهل البلاد وكسب ودهم ونال طاعتهم بالعدل والاحسان ومما يؤكد هذا هو عودة زبيد الى احسن احوالها من العمارة والامن والاستقرار ، كما نتج عنه ثراء الكثير من سكانها (٦٢) . ثم اتخذ منها مركزا لحكمه الا انه استوخم هواءها فسار في الجبال ومعه الاطباء يتخير مكانا صحيح الهواء للسكنى فوقع اختيارهم على تعز فاختط هنالك مدينة واتخذها مركزا لملكه ولملوك بني ايوب من بعده(٦٣) .

استمر اتصال الملك تورانشاه باخيه الملك صلاح الدين وما ان اتم سيطرته على اليمن نراه يكتب الى اخيه من اليمن يخبره بانتصاراته ، فكتب الملك الناصر صلاح الدين الى نور الدين محمود يخبره بما افاض الله عليه من الاحسان بملك البلاد فأرسل نور الدين من عنده مهذب الدين ابا الحسن علي بن عيسى النقاش الى الخليفة العباسي في بغداد يخبره بفتح اليمن (٦٤) .

وعلى مدى سنتين من حكم الملك شمس الدولة تورانشاه بن ايوب استقرت الحالة السياسية باليمن ولم يظهر ما يشير الى ضعف حكمه الا تحرك صاحب حضرموت (٦٥) . ضده ولكنه استطاع التصدى له وقتله وعاث شخص آخر يسمى هارون في تلك البلاد ، مما دفعه ان يجري بعض التعديلات في ادارته ، فولى مملوكه ياقوتاً ثغر تعز (٦٦) وجعل اليه امر الجند كما ولى قلعة تعكر الى مملوكه قايماز ، وعندها قرر العودة الى مصر وترك حكم اليمن .

(٦١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين : ٤٦ ، ابن الأثير ، الكامل : ٤٦٨/١١ ، الخزرجي العقود اللؤلؤية : ٢٩/١ ، يحيى بن الحسين : غاية الاماني /ق٣٢٧/١ .

(٦٢) ابن الأثير : الكامل/٣٩٨/١١ ، ابن واصل : مفرج الكروب /٢٤٣/١ .

(٦٣) ابن خلدون : التاريخ : ٣٨٧ ، الزبيدي / بغية المستفيد ورقة ٢٩ .

(٦٤) ابو شامة : الروضتين / جا ق٥٥٥/٢ - ٥٥٦ .

(٦٥) حضرموت : ناحية واسعة شرقي عدن بقرب البحر : ياقوت ٢٧٠/٢ .

(٦٦) ابو شامة : جا ق٦٦٥/٢ سبط ابن الجوزي / مرآة الزمان /ج ٨ ق٢٣٥/١ .

اجتمعت عدة اسباب دفعت بالملك توranشاه الى ان يترك اليمن منها انها لم تطب له حيث سئم الاقامة (٦٧) فيها كما حمله الشوق الى رؤية اخيه الملك الناصر صلاح الدين وهو في الشام فضلا عن رغبته في ان يلتقي مع ملوك الشام ويجتمع بهم (٦٨) في وقت كان القاضي الفاضل يكتب اليه الرسائل الفائقة ويودعها شرح الاشواق مما اثار به الشوق والحنين الى الشام (٦٩) فغادر اليمن حتى وصل دمشق في شهر ذي الحجة من سنة ٥٧١ هـ (٧٠) ثم غادرها الى لقاء صلاح الدين فأدركه بمدينة حماه فتعانقا في المخيم بالميدان وسر السلطان بلقائه (٧١) وذكر انه كتب الى اخيه السلطان صلاح الدين من الطريق حينما خرج من اليمن يخبره بوصوله (٧٢) وكان يستأذنه وضمنه شعرا من قول الشاعر بن المنجم المصري مطلعها (٧٣)

الشوق اولع بالقلوب وأوجع فعلام أدفعُ منه مالا يُدفَعُ

ويمضي حتى يقول : —

وإلى صلاح الدين اشكو انني من بَعْدِهِ مضنَى الجوانحُ موجع (٧٤)

وبقي مقيما عنده حتى ولاه دمشق واعمالها والشام وامره بان يكون في وجه الافرنج لانه خاف مكاتبة اهل حلب لهم وكما هو معروف عنهم (٧٥) الا انه

---

(٦٧) الحنبلي : شفاء القلوب /٥٣ .

(٦٨) ابو شامة : الروضتين / حـ ١ ق٢/٦٦٣ .

(٦٩) راجع اليافعي . مرآة الجنان /٣/٤٠٤ .

(٧٠) ابن شداد : سيرة صلاح الدين /٥٢ ، ابو شامة . الروضتين / ج ١/ق٢/٦٦٥، في حين ذكر ابن الأثير انه قدم الى دمشق في شهر رمضان من سنة ٥٧١ هـ / والصحيح انه وصلها في بقية شهر ذي الحجة من نفس العام (ابن الأثير حوادث سنة ٥٧١ هـ) .

(٧١) ابن واصل : مفرج الكروب /٢/٤٨ .

(٧٢) الحنبلي : شفاء القلوب / ٥٣ ، يحيي بن الحسين : اخبار القطر اليماني /ق١/٢٥ .

(٧٣) الشاعر ابن المنجم المصري . هو الشاعر نشيء الدولة علي بن المفرج المنجم، ت ٦٣٠ هـ . الاصبهاني ، الخريدة ، قسم شعراء مصر /١/١٦٨ .

(٧٤) ابن الأثير الكامل /١١/٤٣٤ ، ابن واصل . مفرج الكروب /٢/٤٨ — ٤٩ .

(٧٥) ابو شامة : الروضتين / ج١ق٢/٦٦٥ ، كان مثل ذلك التحالف قائماً بين الأتابكة والافرنج منذ سنة ٥٧١هـ / مفرج الكروب /٢/٣٨ ، عبدالفتاح عاشور / الحروب /٢/٧٤٧ .

رحل عن الشام قاصداً مصر سنة ٥٧٤ هـ ــ ١١٧٨ م (٧٦) فطلب من اخيه الاسكندرية على ان تكون اقطاعا له ، فاجابه الى ذلك فاقام فيها الى حين وفاته في شهر محرم سنة ٥٧٦ هـ ــ ١١٨٠ م ويبدو انه استمر في الاحتفاظ بسلطته على اليمن حتى وفاته حيث ذكر انها كانت له اكثر اليمن ونوابه تحمل اليـه الاموال من زبيد وعدن وما بينهما من البلاد والمعاقل (٧٧) وبقيت بيده الى ما بعد خلافة المستضيء (٧٨) ومع ذلك كله فلو استمر شمس الدولة مقيماً باليمـن يتولى شؤونها السياسية بنفسه لامكن للحكم الايوبي ان تثبت اركانه ولم يتمكن الحكام والنواب الخروج من تبعيته السياسية والادارية ، ولدينا نص تاريخي يكشف لنا كيف هابه ملوك اليمن وسكانها فيذكر انه حين هم شمس الدولة بمغادرة اليمن الى مصر تناقل الناس حديثه فاستغل الامر رجل يقال له عباس وهو صهر ياسر بن بلال بن جرير المحمدي صاحب عدن الذي كان بينه وبين ياسر عداوة فاراد عباس ان يوقع بخصمه فافتعل كتابا على لسان ياسر وزور عليه علامتـه وعنونه الى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يذكر فيه ان شمس الدولة سائر الى اخيه صلاح الدين وذلك لضعف حكمه في اليمن ويحرضه فيه على الامتناع من تسليم الاموال اليه ، فوقع الكتاب بيد شمس الدولة فلما وقف عليه استدعى ياسراً واستجوبه عما فيه فانكر كتابته وتوقيعه ودافع عن نفسه فلم يصدقه شمس الدولة فأمر بقتله فقتل بين يديه صبرا وعلى اثرها هابه ملوك اليمن وحملوا اليه الاموال وحلفوا له على الطاعة (٧٩).

بقي الملك تورانشاه طيلة الفترة التي مكث فيها باليمن تابعاً الى اخيه صلاح الدين

---

(٧٦) ابن عبدالحي الحنبلي . شذرات الذهب /٣/٢٥٥ ــ ٢٥٦ .

(٧٧) ابن الأثير . الكامل /١١/٤٦٨ ــ ٤٦٩ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية /١/٢٩ الغساني : العسجد المسبوك /١/١٨١ الحنبلي : شفاء القلوب : ٥٣ ، يحيى بن الحسين : اخبار القطر اليماني / ق١/٣٢٧ ، ابن العبري / تاريخ مختصر الدول / ٢١٨ .

(٧٨) انظر القلقشندي : مآثر الانافة : ٢/٥٤ ــ ٥٥ .

(٧٩) ابو شامة : الروضتين /ج ١ ق٢/٤٦٣ ــ ٤٦٤ .

يوسف بن ايوب ، ولم يبد منه اي تصرف سياسي او اداري يعكس لنا بانه حاول الاستقلال عن مصر والشام بل على العكس من ذلك اذ حمله الشوق والحنين ورؤية اخيه صلاح الدين الى ترك اليمن ومغادرتها والاجتماع بأخيه في الشام .

السياسة الايوبية في اليمن بعد وفاة الملك تورانشاه بن ايوب :

غادر الملك شمس الدولة تورانشاه اليمن الى الشام سنة ٥٧١ هـ - ١١٧٦ م، تاركاً فيها نوابه وهم الامير سيف الدولة ابو الميمون مبارك بن كامل بن منقذ على زبيد والتهائم ، وعثمان بن علي الزنجيلي على عدن وتوابعها ومملوكه ياقوت التعزى على تعز واعمالها [٨٠] ومظفر الدين قايماز على جبلة ونواحيها [٨١] اما الامير سيف الدولة ابن منقذ [٧٢] فقد استأذن الملك شمس الدولة تورانشاه بالعودة الى الشام على ان يعفيه من منصبه واذن له فاستناب اخاه خطاب بن منقذ في زبيد [٨٣] .

ولما توفي الملك شمس الدولة وقع الخلاف بين نوابه كما اعلنوا شق عصا الطاعة للحكم الايوبي وامتنعوا عن دفع الخراج ، وضرب كل منهم سكة باسمه ومنع اهل بلده ان يتعاملوا بغيرها الا مظفر الدين قايماز فانه عجز عن ضبط مخلاف ذي جبلة . فنهض اليه عثمان الزنجيلي من عدن طامعاً في بلاده فتسلمها وتوجه

(٨٠) ابو شامة : الروضتين /جا ق٢/٦٦٤ - ٦٦٥ ابن واصل : مفرج الكروب /٢/١٠٢-١٠٣

(٨١) ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن /٢/٢٣٨ ، الزبيدي . قرة العيون /ق١/٣٨٣ يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ١/٣٢٦ .

(٨٢) الامير سيف الدولة ابن منقذ من امراء شيزر ولد بالشام سنة ٥٢٦ هـ وتوفي سنة ٥٨٩ هـ . خرج بصحبة الملك شمس الدولة الى مصر وظل يقيم فيها الى حين وفاة شمس الدولة سنة ٥٧٦ وفي ٥٧٧ هـ - قبض عليه صلاح الدين واودعه السجن على اثر وشاية ثم اطلق حتى توفي بمصر سنة ٥٨٩ هـ راجع : العماد الاصبهاني : الخريدة : قسم الشام : ١/٢٢٣ ابن واصل : مفرج الكروب ٢/١٠٣ - ١٠٤ ابو مخرمة تاريخ ثغر عدن ٢/٦٩. (ويضيف الزبيدي انه من امراء الدولة الصلاحية بمصر شاعراً) قرة العيون : ق١/٣٨٣ .

(٨٣) ابن واصل : مفرج الكروب /٢/١٠٣ .

الى حضرموت فنهبها ثم رجع الى عدن (٨٤) كما استفلحت الفتنة بين خطاب ابن منقذ – والي زبيد – وعزالدين عثمان ابن الزنجيلي ، والي عدن – عندما سمعا بوفاة الملك المعظم واخذ كل واحد منهما يسعى في فرض سيطرته على بلد الآخر (٨٥) واستمرت بينهما الفتن فلما علم السلطان صلاح الدين بذلك خاف ان يخرج اليمن من حكم بني ايوب ، فارسل عسكراً بقيادة الامير صارم الدين خطاب وحمله كتاباً الى الامراء يأمرهم به ان يسيروا معه الى قتال خطاب بن منقذ واخراجه من زبيد ، وما ان وصل حتى بدأ الامراء يفدون اليه ، فسار بهم الى زبيد في وقت كان خطاب قد هرب منها فدخلها واعادها الى السيطرة الايوبية الا ان الامير صارم الدين خطابا مات (٨٦) مما سهل على خطاب بن منقذ ان يعود الى امارته بزبيد واقطاعه ، فاطاعه الناس (٨٧) وهكذا عادت زبيد واعمالها الى خطاب في حين بقي عثمان الزنجيلي يخطط للايقاع به فلم يستطع (٨٨) وما ان تسربت اخباره الى صلاح الدين وما حل باليمن من فتنة بسببه ، قرر ان ينتدب اخاه الملك سيف الاسلام ظهر الدين طغتكين للقائه والقضاء على دابر الفتنة في اليمن (٨٩) ولتعود اليمن من جديد تحت الحكم الايوبي .

وعليه فان قيام الدولة الايوبية في اليمن كان يمثل ضرورة من ضرورات الحكم الايوبي وان امتداد سيطرتهم الى الاراضي الواقعة جنوب مصر باتجاه البحر الاحمر الى اليمن والحجاز كانت تفرضه حاجة دولتهم العسكرية الى توفير مزيد من الاراضي ترابط عليها عساكرها وتملك من فوقها حرية التحرك العسكري لقتال

(٨٤) الزبيدي : قرة العيون /٣٨٤/١ الخزرجي : العقود اللؤلؤية/٢٩/١ ، غاية الاماني في اخبار القطر اليماني : ٣٢٦/١ .

(٨٥) ابن الأثير : الكامل : ٤٧٢/١١ ، ابو شامة : الروضتين ٢٦/٢ طبعة دار الجيل ط٢/ ١٩٧٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١٠٤/٢ .

(٨٦) راجع الزبيدي : بغية المستفيد : ورقة /٣١ (مخطوط)

(٨٧) ابن الأثير : الكامل ٤٧٢/١١ ابن واصل مفرج الكروب ١٠٤/٢ .

(٨٨) الزبيدي . قرة العيون : ٣٨٦/١ .

(٨٩) ابن الأثير الكامل : جـ٤٨٠/١ مفرج الكروب ١٠٥/٢ .

الخارجين والمتآمرين على قيم ومبادئ الامة . خاصة وان حكم هذه الدولة في مصر قد نشأ وسط انظمة سياسية متباينة بعضها أزيل في حكم قوتهم العسكرية وجهود زعامتهم كالدولة الفاطمية في حين بقيت القوى السياسية الاخرى في الشام والجزيرة تهدد كيان الدولة الجديدة في مصر وتتآمر عليها كقوة الفرنج في ساحل الشام ومصر وبالتعاون مع الصليبيين الى جانب القوى المحاية من الدول والامارات الاسلامية في بلاد الشام والجزيرة حيث يتمتع غالبية زعماء تلك الدول بالنزعة الشخصية ولذا اصبح لوجود انظمتهم وسط دولة بني ايوب او على حدودها الاقليمية الوهمية خطرا يهدد وجود الامة ومباد‌ءها في الوحدة والتحرير .

ان خلق نوع من التجانس الفكري اصبح الاساس والمنطق لدولة صلاح الدين الى الوحدة بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ ــ ١١٧٤ م والتي ينتظرها بنو ايوب والمسلمون وقد وجدها فعلا في سياسة صلاح الدين ومن خلال قيادته للجماهير . وعلى مدى ما حققه من انتصارات في مصر والشام والجزيرة خلال حكمه الذي امتد من سنة ٥٦٩ هـ ــ ٥٨٩ هـ .

لقد ارتبطت اليمن العربية في تلك السياسة منذ ان حكمها بنو ايوب سنة ٥٦٩ هـ ــ ١١٧٤ م ان طبيعة الاوضاع السياسية فيها يختلف نسبياً عن بلاد الشام والجزيرة ففي البلاد الاخيرة وقفت الجماهير الى جانب صلاح الدين فقاتلت تحت قيادته الافرنج الصليبيين في حين سيرت الأطماع الشخصية والنزعة القبلية التي اتسم بها حكم نوابه عساكر اليمن وجماهيرها باتجاه رفع شعار المعاداة لحكمه بل كان له دور في تحديد هوية الحكم وقد اتضح ذلك جليا من الصورة التي عكسها حكم تورانشاه بن ايوب في اليمن وبمجرد عودته من اليمن الى مصر عادت الفوضى السياسية والعسكرية وانتقض نوابه ضد حكمه وقد تجاوز بعضهم ذلك الى التلويح بشعار الاستقلال .

ان رد الفعل هذا لدى بعض نواب بني ايوب في اليمن وضع السلطان صلاح الدين امام الحقيقة السياسية الثابتة وهي ان ليس بالامكان ادارة شؤون اليمن

السياسية والادارية من مصر او الشام عن طريق نوابه بل لا بد من استخدام القوة العسكرية فهي الكفياة بازالة كل مظاهر التردد والانقسام واهذا قرر ارسال اخيه الملك سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين على رأس حملة عسكرية لحسم الموقف وانتزاع زمام المبادرة من العناصر المنشقة ذات النزعة القبلية والاطماع الشخصية وقد نجح في ذلك اذ استطاع الاخير ان ينقذ الحكم الايو بي في اليمن من الضياع فجاء ذلك سنة ٥٧٧ هـ — ١١٨١ م حينما اعلن ذلك بنفسه لتعود اليمن الى حكمه و بعمله هذا و فر لدولته عمقاً استراتيجيا من الجنوب و باتجاه البحر الأحمر والحجاز .

